الأدب الإنغزالي في مصر

احمد عباس صالح

في أوائل عشرينات هذا القرن نشر توفيق الحكيم مسرحيته الاولى « اهل الكهف » ولاقت المسرحية ترحيبا كبيرا على المستوى الادبي اذ لم يطبع منها حينذاك الا بضع مئات وقدمه طه حسين الى قرائه تقديما جيدا . وكانت المسرحية تتحدث عن اهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة عام ثم عادوا الى الحياة من جديد . وكان موضوع المسرحية هو استحالة القفز على الزمان ، ولهذا لم يتمكن أهل الكهف من الاستمرار في الحياة في ظروف مغايرة للظروف التي عاشوا فيها قبل نومهم الطويل .

ولقد قيل الكثير حول تفسير هذه المسرحية ، ولكن يظل الشيء البارز انها تقول بوضوح ان الماضي لا يصلح للحاضر حتى لو بدا لنا بعض اوجه الشبه بينهما .

وهي مقولة صحيحة في حد ذاتها الا انها كانت تواكب اتجاها من الفكر المصري حينذاك يريد ان ينسلخ عن الماضي ليلحق بالعصر الحاضر . كان المطروح بقوة هو تطويع التراث للظروف الحاضرة ، وكان يقصد بالتراث الشريعة الاسلامية بصفة خاصة وتفريعاتها المختلفة . قام بهذه المحاولة طليعة من الادباء والمفكرين بدءا من رفاعة الطهطاوي مرورا بجمال الدين الافغاني ثم وقوفا عند محمد عبده الذي انجز في هذا المجال انجازا ضخما واثر تأثيرا واسع النطاق في الوطن العربي .

وبدا هذا الطرح متصلا بفكرة هامة هي خصوصية الحضارة العربية وقدرتها على مطاولة الحضارة الاوربية الحديثة .

ومن الممكن ان نفهم ضمنا الرغبة الكامنة وراء هذا الاتجاه في الاستقلال عن أوربا ومقاومة محاولات الاحتواء التي كانت قائمة على قدم وساق . وقد انتهى الصراع فعلا الى الاحتلال العسكري واحداث تغييرات جوهرية في نظم التربية والتعليم وفي الثقافة العامة .

رقبل مسرحية « أهل الكهف » صدر كتاب احدث ضجة كبرى للاستاذ علي عبدالرزاق هو « الاسلام واصول الحكم » وكان هذا الكتاب يناقش موضوع الخلافة في الاساس . الا انه كاتجاه كان يعزل الشريعة عن الامور الدنيوية ، وكان ينادي بالليبرالية الغربية . كان يدعو الى الانعتاق من أسر الماضي والتفاعل مع العصر الحديث . وكان العصر الحديث يعني النظم الغربية في نشاطاتها المختلفة .

سوف نجد هذا في كتابات لطفي السيد ايضا . اذ كانت هذه المجموعة مترابطة وكان اجتهادها ان الاستعمار البريطاني يستطيع ان يقوم بالاصلاحات الضرورية وان ينقل مصر الى العصر الحديث . وكان هذا الاجتهاد يؤدي الى ضرورة انسلاخ مصر عن كل ما يحيط بها من عالم متخلف وان يحررها بصفة خاصة من التراث الاستبدادي الرجعي الذي يتمثل في المفاهيم الشائعة والمنسوبة الى الدين .

وفي هذا الاطار كتب طه حسين كتابه « الشعر الجاهلي » والذي اثار ضجة مثيرة للدهشة . ذلك ان معاصريه قد فهموا انه يدعو الى اعادة فحص التراث الادبي ، بل الى التشكيك فيما يملكون من تراث . مما يدل على مدى التوتر الذي كان يعيشه المجتمع وكثرة الشكوك والريب التي كانت تسود الحركة الثقافية .

على ان طه حسين بعد هذا الكتاب بمدة طويلة ، في سنة ١٩٣٨ ، كتب كتابه الهام « مستقبل الثقافة في مصر » وفي هذا الكتاب أعلن بشكل واضح ان مصر تنتمي الى حضارة البحر المتوسط وان حضارتها اوربية في واقع الامر . وكان الكتاب يقدم تصورا لنظم التعليم والثقافة يستهدف « أن نسير سيرة الاوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم اندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها ويكره ، وما يحمد فيها وما يعاب » على حد ما جاء في هذا النص الحرفي من كتابه المذكور .

لقد بدا هذا الاتجاه يأخذ شكلا متميزا على يدي لطفي السيد ، وان كانت بذوره موجودة الى ما قبل هذا . ولعلنا نجد اول ملمح لها عند الشيخ حسن العطار معاصر محمد علي واستاذ رفاعة الطهطاوي والذي لعب دورا هاما ما زال مجهولا في تاريخ الثقافة والسياسة في مصر .

كان للشيخ حسن العطار دور بارز في فترة الاحتلال البونابرتي لمصر، وكان من الذين اطلعوا على المجمع العلمي الذي انشأه الفرنسيون ولعله هو الذي صحب الشيخ الجبرتي الى بيت السناري بالقاهرة حيث شاهد لاول مرة مسحوق الديناميت وفجره امامه بمطرقة صغيرة احد العلماء الشبان المازحين .

والشيخ حسن العطار هو الذي حمل الى كبار المشايخ والعلماء العريضة التي تطالب بتنصيب محمد علي واليا على مصر . ويروي الشيخ الجبرتي جداله الحاد مع الشيخ العطار حول هذه العريضة ورفضه التوقيع عليها . ومع ذلك فقد حصل العطار على توقيع غالبية العلماء . وسوف يظل هذا الرجل الهام مؤثرا في الحياة السياسية والثقافية حتى بعد ان انقلب محمد علي على عمر مكرم وعلى الآخرين من كبار القادة الشعبيين ، وكان نفوذه قويا حتى ان ترشيحه رفاعه الطهطاوي للسفر مع بعثة علمية الى فرنسا لم يلق اي اعتراض .

ان قصة العطار هنا تشير الى قصدين وهو ان الاعجاب بالحضارة المتفوقة شيء طبيعي ، وان عددا من الشخصيات الهامة في تاريخ الثقافة العربية قد تأثر بهذه الحضارة وتمنى ان تمضي الحياة في بلاده على نمطها . ولكنها ايضا تشير الى ان الفرنسيين تعاملوا مع شخصيات عديدة واستطاعوا ان يستميلوا اليهم من كان لديه الاستعداد .

ولقد انتقل الفرنسيون الى مصر والى اقطار عربية اخرى بالجيوش والاساطيل وبالعلماء ورجال الفكر ايضا . اما بعد ذلك فان المصريين وسائر العرب قد انتقلوا الى الفرنسيين والى غيرهم من الاوربيين .

ولا شك ان الانتقال الاخير انتقال طبيعي وبقدر ما كانت مصر تجني منه ثمارا طيبة ، كانت اوربا ايضا تجني منه بعض الثمار .

وحينما كانت السفارة البريطانية بالقاهرة تحكم مصر فاننا نكون من السذاجة حين لا نفكر قليلا أو كثيرا في انها كانت تجد وسائل متعددة

لتشجيع هذا الاتجاه الفكري أو ذاك . وانها كانت تتدخل الى حد ما في صياغة اتجاهات الرأي العام .

في هذه الفترة نشط التيار الجديد الذي بدأ بقيادة لطفي السيد . مؤسسا جريدة السياسة ، عاملا بكل قوة على تحديث مصر ، داعيا الى انشاء الجامعة المصرية ، مطالبا بالحكم الذاتي وبالاعتماد على المثقفين المصريين باعثا للوطنية المصرية بمفهوم جديد ، أهم ما فيه هو الهجوم على الخلافة العثمانية ، منددا بكل الآثار السلبية القديمة والناتجة عن التراث. ولذلك اتجه لطفي السيد الى المصادر الأصلية التي اعتقد أن أوربا قد نهلت فيها فترجم الى العربية بعض كتب ارسطوا ، الامر الذي يذكرنا بعد ذلك باهتمام طه حسين بترجمة بعض المسرحيات اليونانية القديمة والحديث عن ذلك الادب في كتاب كامل ظل مقررا على طلبة المدارس الثانوية لفترة طويلة فضلا عن عنايته الشديدة بتدريس اللغة اليونانية واللاتينية في كلية الآداب أثناء عمادته لها .

والحق ان هذا التيار لم يكن شعبيا على الرغم مما فيه من نزعات نحو المعاصرة والتحديث ، ذلك انه من اهتمامه بالحضارة الغربية الحديثة كاد أن يخلع كل شيء عن مصر ، وان يسلم بوصاية الاحتلال على البلاد . وها نحن قد راينا الدكتور طه حسين يقبل على الحضارة الغربية بخيرها وشرها بما يعاب فيها وبما لا يعاب . مما يجعلنا نعتقد انه لم يسع الا الى تقليد شامل ، لم يفكر حتى في عملية انتخاب ، لم يفكر في انتقاد ولم يحاول الوصول الى صياغة جديدة تستفيد من حضارة الغرب بما يوافق الظروف الموضوعية للواقع الاجتماعي المصري . ونحن لا نكاد نجد من كتابات استاذه لطفي السيد اي طموح لصياغة مستقلة .

واذا عدنا الى الجبرتي والعطار فاننا سنجد نمطين من الفكر . الاول ويمثله الجبرتي كان ذا رؤية محافظة ومع ذلك كان موقفه من الاحتلال الفرنسي عدائيا واضحا ، وكان ينظر الى الحكم العثماني والولاية المملوكية على أنها جزء من كل هو العالم الاسلامي ، وكان ما يقدمه الفقه الاسلامي من نظم فكرية لتحقيق العدالة والتقدم مقنعا بالنسبة له ، والابتعاد عن التعاليم الصحيحة للشريعة . وعندما طلب العطار توقيعه على عريضة بتنصيب محمد علي كان متصورا ان هناك استدراجا للابتعاد عن ذلك الاطار والدخول في دوامة أخرى تتبع الفرنسيين . ولم يكن الجبرتي منغلقا ولا ضيق الافق ولكنه كان يتحسب من المستقبل وان كان فهمه للحظة التاريخية ودلالات الأحداث غير دقيق .

هذا الخط الفكري سوف نجده في التطورات القادمة . أما خط العطار فكان أقل تحفظا ، بل لعله كان متحمسا للنمط الاوربي . وكان الرجل من هذا الصنف المحب للحياة ، بل كان يعجبه الجانب الماجن منها أحيانا ، وقد ادرك بذكائه ان السلطان سيظل في حوذة القوة الاوربية الجديدة والتي رآها عن قرب طوال ثلاث سنوات . وكان العطار يستطيع ان يجري مقارنة بين الولاة المماليك والاتراك وبين الفرنسيين ، وبالتأكيد كانت كفة الأخريين هي الراجحة . ولعله قد عمل جاهدا على تنصيب محمد علي الذي لم يكن يخفي هو الآخر اعجابه بالاوربيين وبالفرنسيين بصفة خاصة .

ومع ان جلاء الفرنسيين عن مصر تم بتدخل من الانجليز لصالح الحكم العثماني المتهاوي ، الا اننا لا يمكن ان نتصور ان الصراع بين انجلترا وفرنسا لوراثة الولايات العثمانية قد انتهى بمجرد الجلاء .. لا بد ان القوتين كانتا تجدان طريقا داخل القوى الاجتماعية والسياسية المصرية .

على أن المؤكد ان القوى الوطنية المصرية استفادت من هذا الصراع ، وكان تنصيب محمد علي احدى ضرباتها الكبرى ، اذ كانت تسعى بغير شك الى شيء من الاستقلال ، والى مشاركة ايجابية في ادارة دفة الحكم في البلاد.

وكان الشيخ العطار الذي لم يخف اعجابه بالنمط الفرنسي ، والذي قبل ايضا التعاون مع ممثليه ، يلعب دورا آخر ، ويرى رؤية مخالفة للشيخ الجبرتي .. كان يرى أن الفساد قد دب في الدولة العلية وانه لابد من اقامة مركز جديد بمساعدة الفرنسيين وبقيادة رجل سياسي وعسكري داهية مثل محمد علي ، وليس من المستبعد انه فكر في ان الاصلاح لن يتم بمجرد تطهير الفساد ، بل بتغيير النظم نفسها ، بما فيها بعض النظم الموروثة والتي كانت الى عهده تتمتع بشيء من القداسة لشبهة انتمائها الى الدين .

من الممكن القول أن الجبرتي كان يمثل النزعة الاسلامية المحافظة بينما كان العطار يمثل نزعة التحديث وادخال نظم بكاملها الى الحياة الاجتماعية والسياسية مغايرة لما هو متعارف عليه .

ولقد امتد خط الجبرتي الى سلالة من الذين يريدون تطويع الشريعة للعصر الحديث للاستفادة من كل الانجازات العصرية التي لايمكن لأحد أن ينكرها مهما يبلغ به التعصب أو ضيق الأفق . بينما امتد خط العطار الى السلالة التي وصلت الى نهاية الخط حيث طالبت بالانسلاخ التام عن الماضي ونقل صورة الحياة المدنية الغربية . فعند نقطة معينة . عند محمد عبده الذي كان وما يزال أكبر الانجازات الفكرية في الثقافة العربية الحديثة هو نقطة الالتقاء قبل ان ينفرط الخطان مرة أخرى ولكن بشكل أكثر حدة . وكلاهما خرج مدعيا أنه يصدر عن محمد عبده . كان لطفي السيد نفسه أحد تلاميذ الشيخ ، وكذلك كان رشيد رضا . من الأول امتد خط المصرية بما يحمله من رغبة جامحة الى التأورب وبالتالي الى الانعزال عن الأمة العربية والثاني امتدت التيارات الدينية المختلفة .

وحتى هذه اللحظة كانت لافتات الصراع تحمل عناوين تستحق التأمل . فالجانب الديني كان يدور حول فكرة الجامعة الاسلامية ، بينما الجانب العلماني يدور حول فكرة القومية المصرية .

كنا نجد عند محمد عبده نفسا عربيا ، وكنا نجده أيضا عند رشيد رضا ، ولكن فكرة الجامعة الاسلامية كانت تغلب عليهما . اما عند خلفائهما فقد اختفى النفس العربي بالمعنى القومي تماما .

وبادىء ذي بدء فان اللافتة الاخرى كانت تتحدث عن قومية مصرية وكانت تستند في ذلك الى اسانيد مختلفة ومن الصعب أن نلمس نفسا عربيا تحت هذه اللافتة الا في الايام الأخيرة من حياة طه حسين وحينما انتقل الى صفوف الوفد واصبح يشكل تيارا راديكاليا بالنسبة لمدرسة لطفي السيد .

وكان نفس الشيء قد حدث في لبنان ووجد هذا القطر من يقولون بقومية لبنانية ، والى حد ما وجد من يقول ايضا بقومية سورية. اما الذين

تنبهوا للقومية العربية فكانوا يستبعدون من اطار العروبة مصر ، كما يستبعدون المغرب العربي .

والواقع ان انهيار الامبراطورية العثمانية التدريجي حفز الأقوام المختلفة التي كانت تنضوي تحت لوائها الى البحث عن انتماء آخر . كانت الامبراطورية تجمع قوميات متعددة تحت راية الاسلام ، وكان غير المسلمين يعيشون في اطار هذه الدولة الكبرى وفي اطار الثقافة الاسلامية ولم يعد هناك توتر حاسم او قلق يخص العقيدة . أما عند الانهيار فقد نشأ فراغ كبير ، واصبح على القوميات المختلفة ان تجد غطاء وان تبحث عن جذرها الانتمائي وهكذا انفرط من عقد الدولة قومية عربية وقومية مصرية وقومية تركية وقومية فارسية وكردية وارمنية .

هذا هو التصور الأوربي ومخططه ايضا ، اذ كان تفتيت الدولة الكبرى احد الاهداف الرئيسية ، ومع انه ليس صحيحا ان القوميات الاوربية نتجت عن انفراط النظام البابوي الذي بدأ انهياره منذ وقت مبكر ، بل على العكس ان الحركات القومية الاوربية كانت حركات وحدوية وليس مثلها التقليدي وحدةايطاليا ووحدة المانيا فحسب بل قبل ذلك الوحدات التي نشأت من مقاطعات متفرقة في سائر أوربا الغربية ، في انجلترا وفي فرنسا وفي اسبانيا وفي غيرها من الدول .

ومن الطبيعي ان تسعى الطبقات القادرة الى توحيد أكبر ساحة ممكنة قادرة على التجمع والاتحاد حتى يتسع مجال النشاط الاقتصادي والسياسي دون حدود او حواجز .

أما بالنسبة للدولة العثمانية فكان التفتيت هو العنصر المهيمن وكانت شروط الوحدة تنكمش ليصبح شرطها الوحيد الشرط العرقي ، وهو الامر الذي شجعت عليه الدول الاستعمارية الحديثة بالنسبة للولايات العثمانية . وفي هذا السبيل تمت ادعاءات كثيرة . وفي مقدمة ذلك الادعاء بقومية مصرية .

وربما لم يكن هناك ارتباط بين الاكتشافات الأثرية في مصر والعراق وسوريا الكبرى وغيرها من الدول العربية وبين الابتعاد عن القومية العربية . ولكن المؤكد ان رجال السياسة الغربيين استفادوا من هذا في تزكية روح الفرقة بخلق انتماءات متعارضة تستند الى أصول موغلة في القدم . وهكذا أصبحت الحضارة ةالفرعونية هي أصل المصرية ، وكذلك الأمر بالنسبة لسومر وآشور وبابل في العراق والحيثية والفينيقيين في الشام . وما أكثر الكتابات التي ظهرت في مصر لتذكي الفرعونية . وعلى كل حال ليس غريبا على الشعب الذي يعاني من الاحتلال الاجنبي والعجز الحاضر ان يلجأ الى ماض مشرق مليء بالعزة ، انه عملية دفاعية تتجه اليها المجتمعات لتلتمس منها قوة لمقاومة الاغتصاب المعاصر ، وقد تلهفت الحركة الوطنية المصرية على انباء الاكتشافات والتقطت الطعم بسهولة ، فاذا كان عمر الدولة سبعة آلاف عام فان الحقبة الاسلامية فيه لاتزيد عن الف وبضعة قرون قليلة .. وهكذا يصبح الاسلام والذي هو مصدر العروبة شيئا عارضا وبالتالي فان تأثيره لن يتعدى اطار الدين ، وتبقى لمصر خصائصها العرقية مثلها في ذلك مثل الاتراك او الفرس او غيرهم من الأقوام الاخرى .

واتجه الادب في مصر من خلال التيار الذي نتحدث عنه الى احياء ذكرى الفرعونية باعتبارها الأصل المصري الصحيح . ولم يكن غريبا ان يكون أول عمل أدبي يقوم به نجيب محفوظ هو ترجمة كتاب عن مصر القديمة وأول ثلاث روايات عن الفترة الفرعونية ، رادوبيس وكفاح طيبة وعبث الأقدار . كان هذا مدخل نجيب محفوظ الى الادب الروائي . وفي نفس الوقت دخل صديقه وزميله عادل كامل عالم الادب بقصة « ملك بن شعاع » وهي قصة تحوي حياة اخناتون ذلك الملك النبي صاحب السيرة الرومانسية الأخاذة .

ومع ان قصة « عودة الروح » تعالج موضوعا معاصرا الا انها كانت ممتلئة بالروح الفرعونية .

أما الدراسات الاسلامية العديدة التي ظهرت في الربع الاول من القرن العشرين وتتابعت بعد ذلك على يدي الدكتور محمد حسين هيكل والاستاذ العقاد والدكتور طه حسين فانها في الواقع كانت محاولة لنقل التراث الاسلامي من مجاله الديني الى المجال العقلاني ، وكان اكثرها يميل الى التحقيق ، كأنه اعادة البحث في قضية كان قد حكم بحفظها ووضعت اضبارتها في مخازن عتيقة . واذكر ان الاستاذ العقاد قال في أحد أحاديثه المنشورة واصفا كتابات طه حسين وهيكل بأن الاول كان يقوم بعمل اثبات حالة قانوني أما الثاني فكان يقوم بعملية جرد قانونية والتعبيران من المصطلحات القانونية الشائعة .. أما العقاد فكان يظن انه يقوم بدراسة في سيكلوجية البطولة من خلال عرضه للتاريخ العربي ، ولذلك كانت أعماله تقوم على سيرة مباشرة ، على عبقرية شخصية من الشخصيات . ومع ان هذه الكتابات الاسلامية لم يكن دافعها اثبات العروبة أو تأصيلها لدى القراء المصريين .. الا ان أحد حتى من غلاة العزلة لم يستطع أن يخلي وجدانه من النزعة العروبية ، وهذا يشكل تركيبا معقدا في نفوس المصريين، وسوف ينعكس دائما على الادب العربي المصري حتى لدى اكثر الكتاب انعزالا . حقا ان الكتابات الادبية الحديثة كانت تهدف الى تخليص التفكير الديني من الخرافات والعودة به الى العقل النقي ، ولكنها في نفس الوقت كانت تفضح انه لا يمكن لأية ثقافة مصرية ان تقوم بمعزل عن الثقافة العربية . ولم يستطع توفيق الحكيم أن ينجو من العدوى فأخرج كتابه عن محمد وهو كتاب من كتب السيرة النبوية .

وعلى كل حال فان الحس العربي عاد من جديد بشكل قوي في الاربعينات ، اذ كان الوضع قد تغير ، كانت قضية الخلافة العثمانية قد انتهت واعلنت تركيا منذ زمن بعيد انها دولة تنتمي الى اوربا وانها علمانية وغيرت حروف الكتابة الى الحروف اللاتينية وهو امر ذو بال ينبغي ان نضعة في الاعتبار بالنسبة للتأثير على الفكر والأدب في مصر أيام التحول الذي قام به كمال أتاتورك وأصبح اعتماد الحركة الوطنية علىتركيا كحليف ضد الاحتلال البريطاني غير وارد ، كما أن لعبة الجامعة الاسلامية فقدت بريقها ، والتفتت الحركة الوطنية المصرية لتجد انها جزء من قومية اوسع ، وانها وقعت في أحابيل كثيرة . اذ كانت لغة الثقافة هي اللغة العربية وكان التراث الحي والمتفاعل هو ذلكالتراث العربي، وانأوربا ذاتها لاتعترفبأية روابط بينها وبين الحضارة المصرية وان التأثير الثقافي الواسع لمدينة الاسكندرية في العصور الزاهرة القديمة كانت له ظروفه الخاصة . كما أن المواجهة مع الاستعمار تتطلب نوعا من التضامن العربي ، وكانت فكرة الجامعة العربية تعبيرا عن نزوع قومي داخل مصر ولم تكن فكرة بريطانية مفرغة من أي محتوى ، بل لعلها كانت محاولة لامتصاص النزوع القومي العربي في هذا الشكل التنظيمي .

وهكذا بدأ الادب العربي في مصر يعيد النظر في التراث وخاصة

المسرح حيث ظهرت موضوعات عديدة للكتاب ماخوذة جميعها من التراث . ونشطت المجلات الثقافية في المجال العربي ، حيث كانت مجلة الرسالة ومجلة الثقافة تعرضان كتابات عربية للكتاب العرب المصريين وللعرب من الاقطار الاخرى .

وحينما انتهت الحرب العالمية الثانية كان الترابط بين الحركات الوطنية قد اصبح ترابطا شعبيا واصبح الشارع العربي واحدا في كل مكان . وعندما وقعت معاهدة صدقي بيفن وجبر بيفن كانت المظاهرات في شوارع بغداد وشوارع القاهرة في وقت واحد ، كما كان النضال في المغرب يلقى صدى قويا في الشارع المصري وفي الاجهزة الاعلامية . وكان الملك محمد الخامس بطلا قوميا على المستوى العربي . وكان النضال السوري جزءا من النضال العربي في الشارع المصري . وما ان قامت ثورة ٢٣ يوليو حتى كان الحس القومي العربي قد وصل الى مداه ودون جهد كبير من هذه الثورة . وهكذا انفجرت الثورات الشعبية في الساحة العربية لتعزز الحس القومي وكانت الثورة الجزائرية هي الجذوة التي اذكت المشاعر القومية اذ ساهم فيها العرب في كل مكان تقريبا ، وكان اسهام مصر فيها كبيرا بصفة خاصة مما فجر العواطف القومية تفجيرا كشف عن ان كل محاولات التفكير الانعزالي السابقة كانت عارضة وكانت من قبيل ردود الفعل ولا تمت الى الجذور العميقة للوجدان المصري .

في هذه الفترة امتلأ المسرح بقضايا التحرير الجزائرية وبموضوعات عن الانتماء العربي . كانت هناك مسرحية عن جميلة بوحريد للشرقاوي وكان له ايضا الفتى مهران وكانت لألفريد فرج مسرحيات سليمان الحلبي وحلاق بغداد وعلي جناح التبريزي والزير سالم الى جانب المسرحيات الاخرى التي كانت تهتم بالموضوعات الاجتماعية المصرية دون ان تنطوي على اي فكر انعزالي .

كل هذا النشاط الادبي المفاجىء ، وهذا الاندفاع العربي العنيف في الثقافة المصرية والشارع المصري لم يتوقف احد ليتساءل لماذا ؟ وكيف ؟

ان الدعوات الانعزالية القديمة لم يكد حبرها يجف ، وما زال اصحابها أحياء .

لعلنا لم نقف هذه الوقفة من قبل ولم نطرح على انفسنا هذا السؤال .. كان الجواب بديهيا ولم يكن يحتاج الى تساؤل . أما الآن فالوضع مختلف .

لقد اصبح واضحا انه كلما عرفت مصر مدا ثوريا .. كلما تحررت الارادة المصرية توجهت وجهتها الطبيعية ، الوجهة العربية .. ومهما يكن نوع الحكومة او حتى وضع قيادتها عرقيا او ثقافيا فان مصر تقود العمل السياسي الى الوحدة العربية .. حدث هذا أيام محمد علي حتى ان ابنه القائد ابراهيم كان يعطي تصريحات في مقابلاته الصحفية مع الصحافة الاجنبية بانه عربي مصري وكان يقول ببساطة انني جئت مصر وانا صبي صغير ولم اعرف الا مصريتي وعروبتي . وكان يقول بصريح العبارة ردا على اسئلة هؤلاء الصحفيين .. لن اتوقف في تحركي العسكري الا حيث يتوقف اللسان العربي .

وفي مرحلة ناصعة من مراحل ثورة ٢٣ يوليو كان مضمونها العربي بارزا حتى تحققت الوحدة السورية المصرية .. وكانت نقطة البداية لنضال واسع المدى على كل الساحة العربية ..

والآن ..

هذه الموجة الجديدة من الأدب الانعزالي .. تكاد نفس الأسماء القديمة تعود من جديد . هذا هو الدكتور حسين فوزي والذي كان اديبا من نوع خاص .وكان ممتلئا بحماسة غير طبيعية للثقافة الأوربية ولم نلتفت الى العنصر الرجعي الكامن وراء هذا التحمس الا بعد فترة طويلة من اختبائه الغريب خلف عباءة تقدم كاذبة .. كان يكتب بالحاح عن عظمة اوربا ، كانت له بعض كتابات سياحية اخرجها في كتاب تحت عنوان سندباد عصري . ثم اخرج كتابا آخر اسماه سندباد مصري . كان الكتاب الاول جولة في اوربا اما الكتاب الثاني فكان جولة في التاريخ القديم وكان يحاول اثبات صحة القومية المصرية كشيء مستقل . ووجه الريبة في هذا الكتاب انه صدر في عنفوان الانفعال القومي العربي لدى المصريين فجاء كما لو كان رداً عليه أو كبحا له .. وهو كتاب مر مرور الكرام ولم يعبأ به احد ، وكان ضعيف الحجة رغم محاولة اثارة النزعة الشوفينية عند المصريين .

وكانت الحركة الثقافية المصرية قادرة على استيعاب اصوات عديدة ومنها صوت هذا الرجل الذي لم يكن يشغل الناس كثيرا ، كما كانت قادرة على استيعاب كتابات رجل آخر هو لويس عوض لعب هو الآخر دورا محدودا في تاريخ الثقافة المصرية ، اذ كان واسطة بين القارىء العربي وبين الثقافة الغربية .. حاول أن يقدم انجازات في النقد التطبيقي فكان شخصيا وغير منهجي .. اما محاولاته في الابداع فكانت للأسف فاشلة ، وكانت لديه حساسية مريبة ضد فكرة عروبة مصر .. ولم نكن ندري لماذا يتأرجح بين اليمين واليسار ، بين التقدم والتخلف ، الا حينما تغيرت الأوضاع في مصر فاذا به يدعو نفس الدعوة القديمة ، وتظهر كراهيته الحقيقة للثورة والتقدم .. وهو ليس الا ليبيرالي مصري يعيش على هامش الثقافة الغربية ويعتبر ان الملكية الخاصة اهم اركان الديمقراطية .

ربما كان لويس عوض اكثر ذكاء من حسين فوزي وهو الى حد ما لمسته الأفكار الاشتراكية ، ولكنه كان داعية الى هجر اللغة العربية ، وكتب مذكرات طالب بعثة باللهجة الدارجة المصرية .. كما هاجم بعنف الشعر العمودي مما اثار الدهشة ، فقد يكون الشعر الحر ابداعا عظيما ، وقد يكون اطار الشعر العمودي اصبح باليا .. كل هذه الآراء من الممكن أن تناقش وأن تكون صحيحة في هذا الجانب او ذاك ، اما أن ينطلق الرأي في شكل عدائي صاخب فهذا هو الأمر الذي اثار انتباه خصوم لويس عوض في الرأي .

اما حسين فوزي فلم يكن في احسن الأحوال الا رجلا خافت الصوت ضعيف التأثير من ذلك الجيل القديم الذي لم يطمع في الحياة الادبية .. كان له ولع بالموسيقى الغربية الكلاسيكية ، وكان المبشر بالنموذج الغربي ، وكان ايضا احد الذين دعوا في الثلاثينات الى الجامعة العبرية في القدس وقبل الدعوة . ومهما يكن من امر فان احدا لا يستطيع أن يدعي أن ذهابه الى اسرائيل الآن والقاء عدة محاضرات في حيفا كان شيئا متوقعا . فهو نفسه كان متحمسا جدا للقضاء على اسرائيل ، وكان يدعي أنه يثير نقاشات حادة لتوضيح الفكرة العربية بشأن الاغتصاب الصهيوني ووجود اسرائيل كجسم ناتيء وشاذ في الجسم العربي .

وقبول حسين فوزي للدعوة الاسرائيلية الى الحد الذي يلقي فيه محاضرات ينسجم على كل حال مع الخط القديم ولكن في ظروف مختلفة

فاذا كانت دعوة لطفي السيد الى الحداثة والمعاصرة والاعتماد على الانجليز في اجراء الاصلاحات المطلوبة من الممكن أن تكون رايا مغلوطاً .. ومن الممكن أن تستند الى بعض الحجج حيث كانت الحركة الوطنية المصرية مضروبة ، وحيث كانت الدولة العثمانية ينخر فيها السوس وكان النموذج الاسلامي المتخيل في الذهن حينذاك مليئا بالسلبيات .. فان الذهاب الى اسرائيل والقاء محاضرات ثقافية على الاسرائيليين في حيفا .. في هذه الظروف مسألة اخرى .. مسألة مختلفة تستحق وقفة تأمل .

حقا ان الحجج التي يقول بها حسين فوزي هي نفسها الحجج القديمة ، فوفقا للتصريحات التي ادلى بها مؤخرا ، يعتقد هذا الرجل ان مصر مجتمع له ميزاته الخاصة ، انها ذات حضارة مستقلة ، وهي حضارة غير عربية ، وهي اقرب الى الغرب ، ويجب أن تتجه اليه . واسرائيل هي امتداد للحضارة الغربية وهي لهذا اقرب الى الحضارة المصرية من العرب ، ثم انه ليست هناك خصومة حقيقية بين المصريين والاسرائيليين خاصة بعد الاسترداد المزعوم للأراضي المصرية المحتلة ، ومن الممكن أن ينشأ تعاون مثمر مع الدولة الغربية المتحضرة المتمثلة في اسرائيل .. ويتضمن هذا التفكير ايضا اسقاط للمرحلة الماضية ، لثورة ٢٣ يوليو التي عجزت لافتقارها الى الديمقراطية الليبيرالية عن ان تنجح في الحرب ضد اسرائيل والتي ورطت مصر في حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل تحت شعارات براقة غير صحيحة هي شعارات الوحدة العربية ..!!

مثل هذا التفكير ماذا يمكن ان يقول الانسان فيه ؟

انه ليس مجرد راي قد يخطىء وقد يصيب ، فالاساس الكاذب فيه شديد الوضوح .. لسنا في حاجة الى اثارة قضية الحداثة والمعاصرة والاصلاح ، فهذه القضية ان كان يمكن أن تثار في مطلع القرن ، وان تنسب الى الظروف التاريخية آنذاك ، الا اننا وبعد أن تقدمت الدراسات حول الظاهرة الاستعمارية واصبحت من بديهيات الثقافة العامة ندرك ان التخلف الذي تعاني منه الدول النامية ناتج مباشرة عن الاسلوب الذي اتبعته الدول الاستعمارية . لن نتحدث عن النهب الاستعماري لثروات هذه البلاد وتحويلها الى منجم للمواد الخام ومنعها عن القيام بأي محاولة للنهوض الاقتصادي ، بل دعنا نتحدث عن التربية والتعليم والتثقيف والتخريب المتعمد لهما ونشر الامية الابجدية والثقافية والعمل على اشاعة التدهور العام في كل المجالات .

هذا لا يمكن ان يغيب عن حسين فوزي ، وبالتالي فان ايغاله الحالي في التورط مع اسرائيل لا تنفع معه الحجج القديمة . وان البنيان الذي يقيم عليه فكرته منهار من الاساس ولا يبقى الا شيء واحد .. هو الاسترابة الكاملة في نواياه ، وفي دوره الحقيقي .. ولنا أن نراجع زيارته القديمة للجامعة العبرية بشيء من الحذر والاسترابة .

ومع ان العلاقات الشخصية لا يجوز ان تدخل في التقييم الموضوعي، الا أن حسين فوزي يعتبر ظلا لتوفيق الحكيم على المستوى الشخصي ، وهو يعيش على هامش توفيق الحكيم كاديب . ومن المؤكد أن زيارته المشبوهة هذه تمت بموافقة وتحريض الحكيم .

وهذا الرجل هو مربط الفرس في الادب الانعزالي وكان دائما لامع الاسم ، الا انه لم يكن شعبياً على الاطلاق ، ولم يستطع ان يؤثر في الحياة الثقافية الا تاثيرات طفيفة .

كان وجوده دائما استكمالا لصورة . فمسرحه عقيم لم ينجب مدرسة او اتجاها وكتاب المسرح المعاصرون لا يمتون اليه بصلة ، ولا يستطيع احد ان يجد اية رابطة بين مسرحه الاجتماعي او الفكري وبين كاتب مثل نعمان عاشور أو يوسف ادريس لم يمرا به على الاطلاق وكانت اجتهاداتهما تعتمد على نماذج اخرى اغلبها من الادب العالمي التقدمي ، اما من الجانب التاريخي أو الشعبي فلا صلة لألفريد فرج أو الشرقاوي بما قدمه سواء من أهل الكهف أو شهرزاد أو أوديب .. بل ان مسرح توفيق الحكيم كان يعتبر مشكلة بالنسبة للمسرح التمثيلي لافتقاره الى العناصر الدرامية وكان هو يدعي انه يخلق مسرحا في الذهن لا للتمثيل .

اما انجازه في الرواية فقد كتب عدة روايات لم يبرز فيها الا عودة الروح وهي رواية مليئة بالعيوب الفنية ولم تكن ايضا منطلقا لنجيب محفوظ ولا للروائيين الآخرين .

فالحكيم رجل يدرك ان ادبه عقيم وان تواصله مع القراء ضعيف ، وحينما يلتفت حوله لا يجد له أي تأثير لهذا كان ممتلئا حقدا على كاتب لعب دورا كبيرا في الحياة الثقافية المصرية هو طه حسين .

وفي تاريخ الحكيم لم يرتبط بأي تيار شعبي . فحينما كان الوفد حزب الاغلبية الشعبي كان هو ضد الوفد . وكان عدوا للديمقراطية الليبرالية في الوقت الذي يدعو فيه الى النمط الغربي . وكان نشاطه الصحفي في صحف الاقلية والتي كان غالبية القراء يتهمونها بالعمالة للسفارة البريطانية وللأمريكية فيما بعد .

وهو رجل قادر على أن يغير مواقعه بسرعة وببساطة فقد اوهم الكتاب التقدميين بتقدميته ولم يهتم أحد في عنفوان الاندفاعة الثورية والثقافية أن يتوقف للتحقق من صحة هذا الادعاء او ذاك ، وكان متحمساً حماسا كاذبا لثورة ٢٣ يوليو ولقائدها جمال عبد الناصر . ولكن ما ان توفي القائد حتى برز دون حياء ليكتب كتابا مسموماً سماه عودة الوعي .

ورغم كثرة كتاباته في صحف اخبار اليوم في الاربعينات الا انه لم يؤخذ على انه كاتب جاد ، وكانت كتاباته نفسها كتابات صحفية خفيفة وضعت خصيصا للتسلية وكان في افكاره العامة يتفق مع خط الصحيفة التي تناصر القصر الملكي وتحاول التعبير عن البورجوازية المصرية وتناصب العداء لكل حركة تقدمية ، بل كانت لا ترضى عن الوفد وتعتبره حزباً راديكاليا خطيراً .

هذا الرجل العاجز عن التواصل الشعبي مع قرائه ينتقل بخطى سريعة الى الصفوف الاخرى ، الى اسرائيل مباشرة . وكان كثير التباهي بأن ابا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلي الأسبق قد ترجم له قصته يوميات نائب في الأرياف الى العبرية .

وهو اليوم يقود الادب الانعزالي ، ان صح انه يوجد بالفعل ادب انعزالي الآن .. ان المحاولات القديمة التي شارك فيها قد تقبل على انها اتجاه له مبرراته . انها خطأ يستدرج اليه الكاتب في داخل تيار عام .

اما اليوم فان الامر يحتاج الى وقفة .

□ □

واذا كانت كتيبة تطبيع العلاقات المصرية الاسرائيلية قد بدأت الحركة يتقدمها توفيق الحكيم وحسين فوزي مستندة الى التيار الانعزالي القديم، آخذة معها اصحاب المواهب الهزيلة مثل ثروت اباظة واحسان عبد

القدوس .. فان العجيب أن ينجرف كاتب مثل نجيب محفوظ في مثل هذا التيار . حقا ان جذوره في الادب الانعزالي تمتد الى الفترة القديمة ، الا انه كان يمتلك القدرة على التطور وعلى رؤية اكثر وضوحا مع مرور الايام . وعلى الرغم من أن الناقد يجد صعوبة في تحديد موقفه العام ، الا أن الدراسة المتأنية تجد انه لم يقدم عنصراً ثوريا على الاطلاق في رواياته . أعني أن الشخصيات التي قدمها كانت عاجزة ومترددة بل خائنة ومنحطة أحيانا . وحينما ووجه بهذا النقد دافع عن نفسه بأنه لم يجد في تجربته الا هذا النوع من الناس ، وانه لم يعثر على شخصية ثورية سوية في كل من صادف من الناس .

وفي الفترة التي بدأ فيها الكتابة حتى الآن كان الثوار الحقيقيون يملأون الشوارع أو يقبعون في السجون أو يبعدون عن بلادهم .

ومع ذلك فان كاتبا ذا موهبة كبيرة مثل نجيب محفوظ ينبغي أن يدرس بشيء من الدقة ، ومهما تكن جذوره المرتبطة بمفهوم ضيق عن المصرية ، فانه لم يرتبط باتجاه رجعي .. كانت ارتباطاته العاطفية قبل الثورة مع الوفد . وكانت كتاباته عن ثورة ١٩١٩ الوطنية ممتلئة بالعاطفة والانفعال وحب الوطن ، أما فيما عدا ذلك فانه ظل يعاني من أزمات فكرية متعددة فقضية العلم والدين من القضايا التي شغلته ، وقضية الاشتراكية والليبرالية شغلته ، وهو لم يكد يجد لنفسه مستقرا . ولعل مجاراته لما يسمى بحملة السلام تستند الى مبررات وإن كانت واهية الا انه لم يتفحصها جيدا ..

والحق أن المبدأ الاساسي الذي يحرك النزعات الانعزالية في مصر يعمل عمله الآن .. فلقد راينا ان مصر حينما تنتكس يظهر الفكر الانعزالي .. بل ان هذا الفكر يتحول ايضا الى عمل سياسي ، فعقب هزيمة محمد علي قامت تصفية شاملة لكل نزعة عربية . وبعد قليل كان توجه الجيش المصري الى أفريقيا ، وبدلا عن التفاعل الذي تم بين الحضارة العربية بمعطياتها الايجابية والحضارة الغربية الحديثة .. حل التقليد والتبعية ..

وهذه الفترة هامة جداً لانها تلقي الضوء على ما يحدث الآن ، فالعجيب أن الغرب الاستعماري والصهيونية ربيبته لم يغيرا من تكتيكهما ولا من استراتيجيتهما .

كان تفاعل حكم محمد علي مدفوعا بالزخم الشعبي المصري مع العالم الغربي قد اتخذ طابعا مختلفا عن الذي بدأ به .. فبدلا من العلاقات الغامضة التي كانت في البداية انطلق محمد علي من مواقع ثورية ، وكان الفرنسيون الذين يعاونون محمد علي في بناء الصناعة وفي تنظيم الجيش والدولة من الثوار السان سيمونيين ، وقد لجأ عدد كبير منهم الى مصر بعد ان يئسوا من الاصلاح في فرنسا .. ومن مصر بدأ نوع من اعادة الصياغة للأفكار .. لم يكن السان سيمونيون وحدهم في الساحة ، كان هناك عدد كبير من المهندسين والعلماء والشبان المصريين ، وكانت تربط بعضهم روابط وثيقة بالثوار الفرنسيين وكان من بين هؤلاء رفاعة الطهاوي، وما تم على ارض مصر لم يكن الا نتاجاً لهذا التفاعل . وكان طبيعيا أن تفرض مصر طابعها العربي على الحركة السياسية والثقافية ، ولذلك كان مجمل التطور السياسي لمحمد علي هو وحدة عربية تتم بمفهوم العصر ، عن طريق الفتح العسكري . والمعروف أن ابراهيم باشا لم يكن يجد مقاومة من الشعب العربي بل من القوى الحاكمة ، وكان ينقل معه الى المواقع العربية النظم الجديثة وعدوى الاصلاح والبناء التي كانت قائمة على قدم وساق في مصر قبل أن يبدأ أي تقدم صناعي في بلد كبير الآن هو اليابان بثلاثين عاما .

وكان هذا وحده كافيا لأن تتكاتف الدول الغربية وفي مقدمتها فرنسا لضرب المشروع الجديد ، مشروع الدولة العربية العصرية التي قامت على ارض الواقع بعملية مواءمة بين التراث والمعاصرة ولم تكن هناك صعوبة تذكر في ذلك .

وابرز نتائج الانتكاسة هي تصفية الجيش وتوجيه ما بقي منه الى الجنوب .. الى افريقيا السمراء .. وهدم كل المؤسسات الصناعية واعادة توزيع الأرض بما يخلق طبقة جديدة تستند في ملكيتها الى سلطان القوة الاجنبية . ثم عودة الى ذوبان الشخصية في اطار الدولة الضائعة ، الهرمة والمريضة ، الدولة العثمانية .

ونفس المخطط حدث بعد انكسار الثورة العرابية ، الا أن الظروف كانت افضل إذ تمت تصفية كل شيء وقوى الاحتلال البريطاني جاثمة على الأرض المصرية .. وفي هذه المرحلة برزت النزعة الانعزالية بروزا ملفتاً للنظر . فهي اذن مرض لا يظهر الا اثناء الانتكاسة أو بايعاز من القوى الغازية .

وها نحن نجد نفس الصورة تتكرر ، فتصفية الجيش هي ابرز معالم المرحلة الراهنة في مصر ، وتوجيه ما بقي منه الى افريقيا بحجة حماية منابع النيل او منع الانتشار الشيوعي او بأية حجة .. وهدم الصناعة وفك المصانع ، والغاء القطاع العام وتشتيت الاقتصاد تحت اسماء وهمية مثل سياسة الانفتاح .. ثم ثقافة انعزالية ، واثارة النعرة الاقليمية ، وزرع الكراهية في قلوب ابناء الأمة الواحدة ..

الا يعيد هذا الى الذاكرة كل الاحداث القديمة .. والا ينبهنا هذا الى طبيعة الأدب الانعزالي ، انها طبيعة خيانية لا تظهر الا حيث تسيطر القوة الاستعمارية ولا تختفي الا حيث يمتلك الشعب العربي المصري ارادته مرة أخرى .

ان الادب الانعزالي ادب موقوت ، وهو ادب مفتعل ، واسلوب من اساليب الادارة الاستعمارية لإحكام القبضة على ارادة العرب المصريين الحرة . .

ولكنه في اضعف حالاته ، وهو اعجز من أن يحقق التزييف المطلوب منه .. تزييف العواطف وتدريب الشعب الذي قدم مائة الف شهيد على ان يصافح قاتليه ، وان يتعايش مع من ليس لهم حياة الا في مماته ..

ان الادب الانعزالي سوف يكون اضعف ادوات التطبيع .